

الشهادة الخامسة^١

”تكرر نزوحي في الأعوام الخمسين
الماضية ثلاث مرات”

– الاسم: عبد الله الخطيب الشملوني

– العمر: ٨٠ عاماً

– مكان الإقامة الحالي: السيدة زينب/دمشق

– البلد الأصلي: عرب الشمالنة/قضاء صفد

– تاريخ الاحتلال: في إطار عملية عسكرية شنت بتاريخ ١٩٤٨/٥/٤

هي رحلة عذاب؛ رحلة بدأت سنة ١٩٤٨، وما زالت مستمرة، لأن خروجي وأهلي وعشيرتي من فلسطين ما زال حاضراً في حياتنا وفي علاقاتنا. لقد تكرر نزوحي في الأعوام الخمسين الماضية ثلاث مرات: الأولى، عندما نزحت عن مضارب عشيرتنا، عشيرة الشمالنة في قضاء صفد، سنة ١٩٤٨؛ الثانية، عندما طردنا الإسرائيليون من المناطق المحرمة [المجردة من السلاح] على الحدود السورية . الفلسطينية بعد المعركة المعروفة باسم ”معركة عرب الشمالنة؛ الثالثة، عندما أجبرنا احتلال إسرائيل لمرتفعات الجولان السورية على النزوح عن قرية البطيحة، خلال حرب ١٩٦٧، ودفعت بنا إلى دمشق لنعيش على حافاتنا، في مخيم الشمالنة في السيدة زينب. وها قد مر خمسون عاماً على نزوحنا الأول، وثلاثون عاماً على نزوحنا الأخير، وعذاباتنا ما زالت تتوالى، وبعدها عن وطننا ما زال قائماً.

إن حديث نزوحي مع أهلي وعشيرتي سنة ١٩٤٨، يعيد إلى ذاكرتي الدور المشؤوم الذي قامت به بريطانيا في تمكين اليهود من إقامة وطن قومي لهم في بلادنا. ومن تفصيلات ذلك الدور ما كان يقوم به الجنود البريطانيون في منطقتنا وفي فلسطين كلها من دعم لليهود في مساعدتهم في الهجرة إلى فلسطين، وإعطائهم

^١ أعدّها فايز سارة. وقد أجريت المقابلة في دمشق، في شباط/فبراير ١٩٩٨.

السلاح والذخيرة والعتاد، وتدريبهم على القتال في معسكرات خاصة بهم، أو في معسكرات إنكليزية، بينما كان تشديد القبضة البريطانية علينا بمثابة سياسة رسمية ويومية. إذ كان البريطانيون يداهمون قرانا وبيوتنا بحثاً عن الأسلحة والذخائر، "وياً سواد ليل من يجدون عنده ولو طلقة بندقية"، ودائماً كان تدمير البيوت والغرامات والسجن. وأنا أتذكر الآن أن عقوبات الانتداب البريطاني تشكل الأساس نفسه الذي تقوم عليه العقوبات التي يفرضها الاحتلال الإسرائيلي على أهلنا داخل فلسطين بفرض الغرامات، وتدمير البيوت، واعتقال الناس.

عندما اشتدت وطأة الهجمات الصهيونية على القرى والتجمعات العربية في محيط صفد، لم يعد أمامنا من خيار سوى الخروج إلى المناطق الآمنة، وكانت تعني الأراضي السورية؛ فالأكثرية منا لا تملك سلاحاً ولا ذخيرة، ولم يكن بيننا من سبق أن درّب على السلاح وخوض الأعمال الحربية، وحياتنا كانت أقرب إلى الحياة البدوية منها إلى الحياة الريفية على الرغم من استقرارنا بالأرض وامتلاكنا لها. كان خروجنا في حينه محاطاً بادعاءات أنه "خروج مؤقت"، إذ ستستعيد الجيوش العربية الأرض وستعيدنا إلى قرانا وبلداتنا، وهذا ما كان يؤكده بعض أبناء عشيرتنا ممن كانوا في جيش الإنقاذ.

كانت تلك هي حالنا، وحال الناس من حولنا. خرجنا جميعاً قبل أن نستوعب وندقق ما كان يحدث. دفعت زوجتي أمامي وأنا أحمل ابنتي نايفة ذات الأعوام الثلاثة، بينما كانت زوجتي تحمل الابنة الأصغر، وخرج والدي محمد الخطيب والذاتي وطفة المحمود، وكلاهما عجوز تقدم به العمر، ومعهما أخي محمود، وكان عمره خمسة عشر عاماً. كما خرج أخي عوض وزوجته، ولم يكن قد مضى على زواجه سوى وقت قصير. خرجنا من بيوتنا بما كان علينا من ثياب، ولا أدري كيف التقطنا بعض المؤن والأغراض القليلة قبل أن نندفع هاربين من الدمار واحتمالات القتل اليهودي.

ما زال مشهد بيوتنا وحقولنا وهي تشتعل حياً في رأسي. لقد غادرنا البيوت تحت قصف الطيران والمدفعية والرشاشات الذي انهمر فجأة في نحو الساعة الرابعة فجراً، وكنا نياماً. انهمر القصف مثلما كان يسقط المطر غزيراً في منطقتنا بالقرب من طبرية، ولم تسمح لنا كثافة النيران، والرعب الذي سيطر على الناس أجمعين، بأن نحمل شيئاً من متاعنا، فتركنا تقريباً كل شيء، إلا ما جاء مصادفة في طريق الهاربين الخائفين فحملوه، ورحلوا بعيداً عن الموت.

عندما وصلنا إلى منطقة "الحاصل"، وهي منطقة مرتفعة إلى حد ما تطل على بلدتنا "أبو زينة"، كان مشهد بيوتنا وحقولنا مأساوياً، إذ أشعل اليهود النار في كل شيء: البيوت، والحقول، والمحاصيل الزراعية، وبيوت المؤن التي كنا نخزن فيها حاجاتنا الغذائية من قمح وطحين وأرز وغيرها لمدة عام كامل. وأنا أعتقد الآن أن اليهود ربما كانوا يعبرون بتصرفهم ذلك عن حقد دفين وهائل، وأنهم لا يريدوننا ولا يريدون ما يدل علينا، ولا أي شيء من بقايانا.

كان خروجنا جماعياً ومأساوياً في وقت واحد، نحو خمسمئة شخص من نساء رجال وشيوخ وأطفال، كان عليهم الخروج في عتمة الليل، واجتياز نحو ثلاثين كيلومتراً إلى الشمال وصولاً إلى الأراضي السورية. كان الطريق صعباً، وقاسياً، والكبار المنهكون كان عليهم أن يحملوا الصغار الخائفين، والدواب القليلة كانت تحمل أقل من القليل من الحاجات الخفيفة: قليل من الثياب وبعض أدوات الطعام، وأقل من ذلك من الطحين ليكفي مؤونة الطريق. كان الراحلون، في معظمهم، تطاردهم بين وقت وآخر طلقات المدافع الصهيونية، ورشقات الرشاشات لإرهابهم ودب الذعر في صفوفهم، وجعلهم لا يتوقفون إلا خارج مدى الطلقات الصهيونية، وهو وضع امتد نحو ثلاث ليال مشينا معظمها نتجول في محيط محافظة درعا قبل أن يستقر بنا المقام بقرية البطيحة.

لم يطل مقامنا بقرية "البطيحة"، ولا أعرف من أين صدرت قرارات تقضي بنقلنا إلى منطقة وادي الرقاد، إلى مخيم نصبته لنا منظمة الصليب الأحمر الدولي بين جبلين. وفي ذلك المكان ذقنا وأهلنا كل أنواع العذاب. لقد عايشنا البؤس والموت ورأيناها في كل ما حولنا: مجرد مجموعة مهملة من البشر، لا طعام ولا ماء ولا دواء. وعندما نسأل كانوا يقولون لنا: غداً تحل الأمور". ومضت أيام قليلة، بعدها أخذ يغزونا "القمل". اجتاحت تلك الحشرة الوضيعة أجسادنا ورؤوسنا، بينما كانت القوارض، وخصوصاً الجرذان، تسرح وتمرح حولنا، كما كانت الحشرات والعقارب والثعابين والحيات تتجول بيننا، وتؤذي أولادنا الصغار.

أذكر الآن كم كانت حياتنا صعبة، حياة لا تليق ببشر. لم تكن بشاعتها مستمدة فقط من طبيعة الحياة في منطقة غير أهلة، أو في مخيم أقيم على عجل لاستيعاب بشر بينهم أطفال وشيوخ ونساء، يحتاجون إلى الماء والنظافة. بل إضافة إلى ذلك، كان هناك مأساة أخرى هي انخفاض مستوى خدمات منظمة الصليب

الأحمر لنا ولعائلاتنا: خيام قليلة، وبعض البطانيات، وكميات محدودة من المواد الغذائية من الطحين والسمن والسكر والزيت، والأقل من المياه، الأمر الذي أدى إلى تردي حياتنا ومات عدد من الأشخاص بسبب الجوع والقذارة التي عمت المخيم، كان منه حمدان الحميد وشحادة المحمود.

في تلك الفترة من حياتنا غادرتنا الأفراح، بل غادرنا الإحساس بالحياة. كان يومنا مشغولاً بالماء ولقمة العيش والمرض. وكان يأتي الطبيب التابع للصليب الأحمر إلى المخيم مرة كل عدة أيام، يعالج الجميع، الرجال والنساء والأطفال، وكل الأمراض. وفي كل الأحوال، لم يكن هناك أدوية كافية، بل كثيراً ما كان يعطى الدواء الواحد لعدة أمراض، وفي الغالب لكل المرضى.

كان البكاء حالة الرد الإنساني على ما كان يحدث، ولم يكن في أيدينا أن نفعل شيئاً سوى أن نلجأ إلى الله عز وجل، ونطلب منه العون والرحمة، نحن الذين طردنا من بيوتنا ووطننا، وأصبحنا ضعافاً وعزلاً إلا من إيماننا بأن الحال ستتغير في يوم ما.

سأستعيد . وكثيرون من أفراد عشيرتي . تلك العذابات والمآسي عندما ضغط علينا الإسرائيليون سنة ١٩٥١ من أجل إخراجنا من وطننا مرة أخرى بعد أن عدنا إليه بموجب قرار من الأمم المتحدة سنة ١٩٥٠ في إثر مفاوضات بين سورية والأمم المتحدة انتهت بعودتنا إلى "المناطق المحرمة"، أو المنطقة المجردة من السلاح بحسب تعبير الأمم المتحدة. رافقت عشيرتنا في رحلة العودة تلك، عشيرة الرقيبات وعشيرة أكراد الخيط وهما عشيرتان من الشمال الفلسطيني.

من جديد، حاولنا بناء حياتنا في وطننا: أقمنا بيوتاً جديدة بدلاً من البيوت التي هدمها الإسرائيليون، وزرعنا الأشجار المثمرة، وأصلحنا الأراضي الزراعية بعد أن كان المحتلون قد أحرقوها. غير أن تدخلات الدوريات العسكرية الإسرائيلية في المنطقة أخذت تتزايد، وعمليات الضغط والإرهاب علينا أخذت تشتد من أجل أن نرحل مجدداً عن وطننا. ووقفت الأمم المتحدة عاجزة عن ردع الإسرائيليين، وعن إجبارهم على احترام قراراتها، الأمر الذي دفعنا إلى الاعتماد على أنفسنا وتنظيم أمورنا، مستندين إلى عمقنا القومي في الشمال (سورية) لنحصل منه على مساعدة من الأسلحة والذخائر للدفاع عن أنفسنا ووجودنا. غير أن الإسرائيليين هاجموا تجمعاتنا فانبرينا لهم، بدعم إخواننا السوريين ومؤازرتهم، مدافعين عن أنفسنا في معركة

معروفة باسم "معركة عرب الشمالنة" والتي استمرت سبعة أيام في ربيع سنة ١٩٥١. وقد استشهد في المعركة عدد من أبناء عشيرتنا وجرح آخرون. وما زلت أذكر من الشهداء شحادة العلي، ومحمد حسين السوداني، وحسناء الحصيد، وأذكر بين الجرحى شحادة الأحمد الشرقي.

لقد دفعتنا آلة الحرب الإسرائيلية بدباباتها وطائراتها ومدافعها إلى الخلف، وأجبرتنا على الرحيل عن أرضنا ثاني مرة، لنعود فنؤسس حياتنا من جديد في البطيحة في الجولان على تخوم وطننا، وبالقرب من أرضنا. لكن آلة الحرب الإسرائيلية دفعتنا بجبروتها، مرة أخرى، في حزيران/يونيو ١٩٦٧ إلى نزوح ثالث، لنبدأ حياة، ما زال يعيش فيها الأمل بالعودة إلى وطننا فلسطين، واستعادة نموذج هادئ لحياتنا التي كانت قائمة قبل سنة ١٩٤٨، وفيها روح التواصل والتقارب مع الأهل والأصدقاء والجيران، وبساطة الحياة الريفية، وكرامة الإنسان في وطنه. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>